الخِطاب التّداوليّ عند الإمامِ الكاظم عليه السلام

الأستاذ المساعد الدكتور
عبّاس إسماعيل سيلان الغراوي
جامعة ميسان ـ كلية التربية الأساسية
abbasabbas19812015@gmail.com

البحث الثالث (مناصفة) الفائز بجائزة باب الحوائج وكاظم الغيظ الإمام موسى بن جعفر
الكاظم عليه السلام الدولية للإبداع الفكري

The deliberative discourse of Imam al-Kadhim (peace be upon him)

Asst. Prof. Dr.
Abbas Ismail Ceylan
University of Maysan - College of Basic Education

الملخص:

التُمستْ هذه الدراسة لتناول شيء مما ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام في ضوء علم اللغة الحديث، متكئًا على شذرات من تلك السيرة الوضّاءة من حوادث وأقوال، وتحليلها وفق ما يعرف الآن بـ (التداوليّة) التي تعني علم استعمال اللغة، لما في خطاباته من أمثلة حقيقية وواقعية وبليغة، وهي بهذا تفوق تلك الأمثلة المصطنعة ـ في الأغلب ـ الموجودة في الدراسات اللغوية، فكان العنوان (الخطاب التداولي عند الإمام الكاظم عليه السلام) ليدلل على التوظيف الفعّال للغة في المجتمع عند الإمام عليه السلام، وقسم البحث على مبحثين، وفي نهاية المطاف وصل البحث الى مجموعة من النتائج أبرزها أنّ الإمام كان يلحظ المتلقي، ويوليه مكانةً فائقة في التخاطب، وقد كشف البحث أيضا عن التميز في استعمال القضايا التداولية من مثل: الافتراض المسبق ومتضمنات القول، ووجد البحث كيف أن الإمام استعمل أسلوب الاستفهام ليكسب المتلقي ويجره إلى التحاور، وكيف كان يستعمل الإيحاء ليشرك المتلقي في التأمل بمقصده.

ويشيع الحجاج عند الإمام إلى حد الإقناع والتأثير، وأظهر البحث أن قصّة واحدة يلحظ فيها فنون التداولية بصورة فعّالة، فحادثة كحادثة العمريّ نجد فيها الملاءمة والقصدية والحجاج وأفعال الكلام.

ولعلي وإن كنت أزعم أن التداوليّة يمكنها الأخذ بحل رموز ذلك الكلام الإمامي إلا أنّ فيه ما ينتظر تطوراً أكثر وأثرى في الفكر اللساني، الذي فيه ما يتجاوز عمقا مسارات التحليل اللغوي الجمالي.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، التداولية، اللسانيات، المتلقي، الافتراض المسبق، نظرية الملاءمة، القصدية، الحجاج.

Abstract:-

This study was sought to deal with some of what was reported from Imam al-Kazim (peace be upon him) in the light of modern linguistics, leaning on fragments of that clear biography of accidents and sayings, and analyzing them according to what is now known as (pragmatics), which means the science of using language, because of what in his speeches of Real, realistic and eloquent examples, and in this way they are superior to those artificial examples - mostly - found in linguistic studies. The title (The Deliberative Discourse of Imam Al-Kadhim (peace be upon him)) was to indicate the effective use of language in society at the Imam (peace be upon him), and the research section was on In the end, the research came to a set of results, the most prominent of which is that the imam noticed the recipient and gave him a high position in communication.

The research also revealed the distinction in the use of deliberative cases.

The research found how the imam used the interrogative method to win the recipient and draw him to the dialogue, and how he used the suggestion to involve the recipient in meditating his purpose.

Pilgrims are popular with the imam to the point of persuasion and influence, and the research has shown that one story in which the arts of deliberation are effectively observed, an incident like that of Al-Omari in which we find convenience, intentionality, pilgrims and speech acts... .

Perhaps even if I claim that pragmatics can take the solution of the symbols of that Imami speech, there is what awaits in it a more and richer development in linguistic thought, which has more depth than the paths of aesthetic linguistic analysis.

Keywords: the speech, Pragmatics, Linguistics, receiver, presupposition, relevance theory, intentionality, pilgrims.

المقدمة:

إنّ النّور الذي هدى هذه البسيطة بهداه تَكرارًا ومرارًا، المتمثّل بالنّبيّ وآله لَحريٌّ أنْ يُنتهَل من شذاه بين الحين والآخر انتهالًا عامًّا على المستويات عامةً ملاحظةً وتأمُّلًا ودراسةً وتحليلًا واستلهامًا وامتثالا...، ولقد بات من البدهيّ على ذي لُبٍّ الرّجوع إلى تراث الأئمة عليهم السلام الفكريّ والعمليّ، والتّنقيب في كلّ زاوية من زواياه، وليس ببعيد أنْ تعتمدَه الدّراسات اللغَويَّة الحديثة، فتسلِّطَ الضّوء عليه شاهدةً في ذلك على ديمومة ذلك التّراث العظيم وعموميته، وأنّه قد سبق الأفكار الرّاهنة بأكثر من ألف عام ويزيد، فالتُمستْ هذه الدّراسة لتناول شيءٍ ممّا ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام(ت١٨٣هـ)، وتحليله وفق ما يُعرف الآن بـ (التّداوُليَّة)، لِمَا في ذلك الخطاب من أمثلة حقيقيّة وواقعيّة وبليغة، وفيها تفوّق واضح على تلك الأمثلة المُصطنعة ـ في الأغلب ـ الموجودة في الدّراسات اللغَويَّة، زدْ على ذلكَ أنّها تسدّ النّقصَ الحاصل من عدم التّمثيل بالشّواهدِ بصورة وافية؛ إذ لا يغيب عن المطّلع على تلكَ الدّراسات أنّها تنعم بالتنظير المُفتقد إلى التّطبيق الوافي، في الوقت الّذي نجد فيه هناك أمثلة عجيبة عند أهل البيت تصلح لأنْ تكونَ خيرَ أمثلةٍ على تلك الدراسات المعاصرة، بل فيها ما يُمكنه تطوير تلك الدّراسات، فموروث أهل البيت هو الأمثل في معالجة الانحراف عند الآخر في وقتٍ وقَعَ فيه كثير من النّاس بحبائل الشّيطان وافتقدوا إلى الحقيقة، فكان الخطاب الإماميّ في سبيل المعرفة الحضاريّة، وهو ما يسعى الباحث إلى بيانه في هذا البحث (الخطاب التّداوليّ عند الإمام الكاظم عليه السلام) ليدلّل على التّوظيف الفعّال للغةِ في المجتمع عند الإمام عليه السلام، فقد كان يؤثر بالمُتلقّي بمجرد النّطق بكلمات قليلة تأخذ أثرها بصورة مُدهشة، وقد قسِّم البحث على مبحثين:

الأوّل: وكان عنوانه (التّداوُليَّة وقضاياها)، تناول فيه البحث التّعريف الموجز بالتداولية نشأةً ومفهومًا، وفرّقَ بينها وبين البلاغة والدّلالة، وما الذي جاءت به زيادة على الدّراسات الألسنيّة الأُخرى على النّحو من البنيويّة، وكون البحث قصَدَ الإيجاز، فقد تجد أمثلته هنا أيضًا من الوهج الكاظميّ لأجل تسليط مساحة ضوئية لا بأس بها على هذه الشخصية المباركة.

ويلحظ أنّ التّداوُليَّة لم تتفق على أطر محدّدة بين التداوليّين على خلاف النَّصّيّة التي تحدّدت بالمعايير السّبعة عند بوجراند، ومن هنا عمَدَ الباحث إلى إيجاد أسس متّفق عليها بين

الباحثين، فاصطدم بالتّضارب والتداخل، فهناك تشابه واتّفاق بين طائفة من قضاياها؛ لذا سعى جهد الإمكان إلى اصطناع منهج يُؤمن البحث من التّداخل، فكان في التقسيم على قضايا تأتت جراء العلاقة بين طرفي العَمليَّة الكلامية (المُتكلِّم والمُتَلقِّي)، وبقيَ القسم الثاني الذي كان في بيان الغرض من تلك العَمليَّة الذي هو (التّأثير).

أمّا المبحث الثاني الذي أسماه البحث بـ (رُقيّ القضايا التَّداوُليَّة في الخطاب الكاظميّ) فقد تناول ظواهرَ من السّيرة الكاظميّة ـ مع مراعاة الإيجاز لضيق المقام بالاكتفاء بطائفة من النّماذج، وقد كشف هذا المبحث عن الحشد التّداوليّ في السّيرة الاماميّة وسُموّه وتميّزه بالنّجاح في إيصال الرسالة وتحقيق أثرها.

إنّ تناول ذلك في ضوء الدّراسة التَّداوُليَّة أبان أنّ التَّداوُليَّة تجلّت فيه تجليًا لم تتجلَّ في كلام أصحابِها المؤسّسين، ويمكنك التأكد من ذلك بالذهاب الى ما كتبوه منقبًا ومفتشًا فلن تجد أمثلة مثل التي سنجدها عند الامام الكاظم عليه السلام، ولا ننسى في كلّ ذلك أنّ الظّرف الذي مرّ به الإمام يُعدّ من الظّروف القاسية التي لو تركت من دون تصدّ لأخذتْ بالأمّة إلى الهاوية غير أنّ وقوف الإمام ودفاعه عن دين جده كان سببًا إلى أنْ ننعمَ اليوم بنعمة الإسلام، ففي تلك ((**الأجواء المملوءة بالظّلم والطّغيان تصدّى الإمام الكاظم عليه السلام لمنصب الإمامة بعد موت أبيه، وبالرّغم ممّا لاقاه هو وأصحابه من جور بني العبّاس؛ فإنّه لم يتخلّ عن دوره وواجبه الشّرعي طليقًا ومحبوسًا، وقام بأدائه على أكمل وجه، وأفضل أسلوب ووسيلة**))[1]، وهذه الظّروف إنما تُسعَف بكلام بليغ ذي حجاجٍ دقيق ومعرفة بفنون الكلام...، وتُجسِّدُ هذه الأغراضَ الرؤيةُ التَّداوُليَّة...

وختامًا نقول: ربنا اجعل هذا العمل خطوة في سبيل الوصول إلى طريق الذين ﴿آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ١٠).

المبحث الأوَّل

التّداوُليَّة وقضاياها

التّداوليَّة مفهومًا:

التَّداوُليَّة: مذهب لسانيّ يدرس علاقة النّشاط اللغويّ بمستعمليه، وهذه العلاقة كفيلة

بالكشف عن زوايا الخطاب، وهي قادرة إلى حدٍّ ما لجعله رسالة تواصليّة ناجحة، وتنماز التَّداوُليَّة أيضا بأنّها تبحث في أسباب الفشل في التواصل[٢]، وهذا لا يتأتّى إلّا من فهمها لتفاصيل السّياق الواردة فيه، ولأجل ذلك اقترن تعريفها بالسّياق، فقيل فيها: ((تحليل تداوليّ يتضمّن بالضّرورة التّحديد الضّمني للسّياق الّذي تؤول فيه الجملة))[٣]، ويقول لنفسن: ((التَّداوُليَّة: دراسَة العلاقات بين اللغة والسّياق كما هي مقعدة أو كما تعكسها بنية اللغة))[٤]، والسِّياق إمّا أنْ يكون سياقًا لغويًّا، وإمّا أنْ يكون سياقًا غير لغويّ (سياق حاليّ)، ويعني الأحوال والمقامات التي ورد فيها الكلام[٥]، فبه يمكن ملء الفراغات النَّصيّة وتحديد الدّلالة القاطعة للكلام، ويتّضح في التّفسير الوارد على لسان الإمام الكاظم عليه السلام؛ فقد قال ((في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: ٥٧) إنّ اللهَ أعزُّ وأمنعُ من أنْ يُظلَمَ، وأنْ ينسب نفسه إلى ظلم، ولكنّ اللهَ خلطَنا بنفسه، فجعل ظُلْمَنا ظُلْمَهُ وولايتَنا ولايَتَهُ))[٦]، فلغة النَّصّ القرآنيّ لا يمكن أنْ تُحمَل على ظاهرها؛ فمحال أنْ ينال الظُّلمُ اللهَ (سبحانه وتعالى)، وإنّما مزج نفسه تعالى بأوليائه...، وقد فُسِّر هذا من ربط اللُّغة بالسِّياق الذي هو تنزيه الله تعالى من أنْ يناله ظلمُ عبادِه[٧].

نشأة التداوليّة:

نشأت التَّداوُليَّة في مجال (الباراغماتيّة) التي تترجم بـ (عمليّ واقعيّ)، وهي فلسفة أمريكيّة تسرّبت إلى اللسانيّة، أو أنّ اللسانيّة أفادت منها[٨]، بعد أنْ جاءت ردّة فعل على (البنيويّة)، فقد ((تحوّلت اللسانيّات... مع البنيويين وخصوصًا المدارس الصّوريّة المتشدّدة إلى علم صوريّ مغلق ذي إجراءات داخليّة خالصة...، ومن هنا راحت عن عمدٍ تتبع منهجًا مُميتًا للتواصليّة اللغَويَّة... بإقصائها لأحوال التّخاطب أو الطّبقات المقاميّة المختلفة التي يُنجز ضمنها الخطاب[٩]، ومن ذلك استبعادها الدلالة التي هي جوهر اللغة الإنسانيّة ومناط التّواصل اللغويّ والاجتماعيّ، ولم تَسُدَّ هذه الثغرة إلا جزئيًّا في أعمال بعض التّوجهات اللسانيّة الوظيفيّة، ثم سُدّت كُلّيًا بعد ظهور التَّداوُليَّة))[١٠].

وهذا هو السّرّ وراء رواج التَّداوُليَّة في الوقت الحاضر وشيوعها، بعد أنْ كانت الدّراسات الغربيّة في معظمها تعتمد على البعد البنيويّ أو البنيويّ التّحليليّ، وأعتقد أنّ التَّداوُليَّة بمبدئها هذا ستستمرُّ على الساحة إلى أمد بعيد، كونها صيّرت من اللغة مثالًا

للإنجاز والممارسة والفعل [١١] بعد أن أخذت على عاتقها كلّ إنجاز يتوقّف على المنطوق اللفظيّ، ولماذا جاء بهذه الصِّياغة؟ وما المقصد؟ وما النتيجة؟ وهذا يحتّم علينا معرفة ناضجة بطرفي الكلام (المُتكلِّم والمُتَلقّي)...

التداوليّة بين البلاغة والدلالة

تتقارب التَّداوُليَّة مع البلاغة في بعض الرؤى، بل انّ المتطلّع على كتب الأدب يجدها قد تتداخل مع الدلالة خصوصًا في اعتماد السِّياق، وهذا أمر طبيعيّ فكونهما يدرسان النَّصّ كان من المحتمل التقاؤهما في قضايا معينة، وقد رأى بعض المتخصّصين أنَّ البلاغة العربيّة ((تداوليّة في صميمها؛ إذ إنّها ممارسة الاتّصال بين المُتكلِّم والسّامع بحيث يحلّان إشكاليّة علاقتهما مستخدمين وسائل محدّدة للتّأثير على بعضهما، ولذلك فإنّ البلاغة والتَّداوُليَّة البرجماتيّة تتفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المُتَلقّي على أساس أنّ النَّصّ اللغويّ في جملته إنّما هو نصّ في موقف))[١٢]، على أنَّ ثمّة طائفةً من الأمور لا يمكن للبلاغة العربيّة القديمة الإحاطة بها[١٣]، ومن ذلك أنّها لم تلتفت إلى النّتيجة المتبلورة جرّاء العَمليَّة الكلاميّة كالتَّداوُليَّة التي تجاوزتها في ذلك، ففي التَّداوُليَّة ((يجب أنْ ينفذ المُتكلِّمون المشاركون الإجراء المتَّفق عليه على وجه صحيح ومضبوط وبشكل كامل وتامّ معًا))[١٤]، وهذا التّباين بين البلاغة والتَّداوُليَّة ((طبيعيّ لتباين الأسس أو الأصول التي أنتجتْ كلًّا منهما والشّيء الظّاهر في ملاحظة هذه الشُّروط أنّها تُعنى بعملية الكلام بدءًا بالمُتكلِّم وانتهاءً بالمُتَلقّي مرورًا بالفعل الكلاميّ وسياق إنجازه، وليس جديدًا أنْ نُقرِّر أنّ البلاغة القديمة أغفلت معظم هذه العناصر، وأغفلت الجانب التداوليّ من الكلام، الذي يُعدّ العمود الفقريّ في نظريّة الأفعال الكلامية))[١٥]، لكن ليس الأمر إلى الحدّ الذي يُجرِّد البلاغة من كلِّ ما له علاقة في التّأثير.

أمّا الدلالة فهي قريبة من التَّداوُليَّة؛ فكلاهما ـ مثلما ذكرنا ـ يهتم السياق غير أنّ التَّداوُليَّة تستدعي الإحاطة بالمرجعيّة الثقافيّة للمتكلم والمخاطب معًا، ويقدّم مجيد الماشطة الفرق ملتمسًا الجملة (هنالك حصانٌ في الحديقة)، فالدلالة تقول: هو حيوان، والتَّداوُليَّة تقول: هو تحذير من خروج الأطفال، أو الخوف عليه من السّرقة، أو ينبغي تقديم الطّعام له....، أو استعماله للذهاب لمكان معيَّن، فالدلالة المعنى الثابت المشترك لكل السّياقات المُحتملة، والتَّداوُليَّة تدرس الملابسات التي تحيط بالمعنى الثّابت، والتي تتغيّر من سياق إلى آخر[١٦].

ويمكن إجمال القول بأنّ التَّداوُليَّة تزيد على البلاغة والدلالة من ناحية تركيزها على ما يترتب من الكلام؛ فكلام الإمام بطبيعة الحال بليغ، وذو دلالة عند المُتَلقّي، وتداوليّ أيضًا كونه يؤكد على ما يحدث في المُتَلقّي بُعيد سماعه لرسالة الإمام، وهذا الفرض دفع بنا إلى تقسيم قضايا التَّداوُليَّة بحسب طرفي الخطاب، وبحسب الغاية من الخطاب إلى الآتي:

ـ قضايا التَّداوُليَّة بحسب علاقة المُتكلّم بالمُتلقّي

يلحظ بالعَمليَّة التَّداوُليَّة العناية الفائقة بعنصري الكلام (المُتكلِّم والمُتَلقّي)؛ وقد عزا الدّكتور إدريس مقبول ذلك إلى ((الاعتقاد بأنَّ الخطاب يتوجّه (من وإلى) أحد الطّرفين، وكذا بالنّظر إلى طبيعة التفاعل اللسانيّ وغير اللسانيّ الّذي... يوجَّهُ بأنّه لا يمكن أنْ ندَّعي فهْمنا للكلام من دون استحضارِ شروط إنتاجه المُحيطة به خاصّة عنصري المُتكلِّم والمخاطب))[١٧]، وعمليّة التّواصل بينهما تقود إلى بثّ الحياة بينهما، فبمقدار تأثّرهما ببعضهما ينتجان الأفعال، وتكون الحياة على هذه الأرض بالإيجاب إذا أدّت الرّسالة التَّداوُليَّة مقصدها، وبالسّلب إذا فشلتْ في ذلك.

ولنجاح عمليّة التّرابُط بين هذه الأطراف تترتّب عِدّة عوامل لهذا التّرابُط منها:

١ ـ وحدة اللغة بين المُتكلِّم والمُتَلقّي[١٨].

٢ ـ التراتبيّة: وهذه تُعدّ عاملًا مهمًا لتحقيق الغاية من الكلام، أي أنْ يكون المُتكلِّم أعلى رتبةً من المُتَلقّي كي يكون ذا شفيعًا لأنْ يمتثل له[١٩].

٣ ـ الاستلزام الحواريّ: وهو آليّة من آليّات الخطاب، يمكنها أنْ تقدِّمَ ((تفسيرًا صريحًا لقدرة المُتكلِّم على أنْ يعني أكثر ممّا يقول بالفعل، أي أكثر ممّا تؤدّيه العبارات المُستعملة))[٢٠]، فالنَّصّ يجرف عادة معهُ مضامين تتأتّى من معرفة العوامل المشتركة بين طرفي الكلام (المُتكلِّم والمُتَلقّي) في ضوء الأحوال المُحيطة، وهذا يتطلّب أنّ المتخاطبين المساهمين في محادثة مشتركة يحترمون مبدأ التّعاون، فهم يتوقّعون أنْ يُسهِم كلُّ واحد منهم في المحادثة بكيفيّة عقلانيّة ومتعاونة لتيسير تأويل أقواله[٢١].

وأرى أن هذا المبدأ يتداخل مع متضمنات القول: التي تعني أنه ثمّة فراغات أو ظواهر ملحوظة يحتملها النَّصّ[٢٢]، و يرصد من طريقها قضيتان:

أ ـ الافتراض المُسبق: إنّ وجود قاسم موضوعيّ مشترك بين طرفي العَمليَّة اللغَويَّة مهمٌّ لإنجاحها، ففي الملفوظ الكلاميّ:

١ ـ اغلق النّافذة. ٢ ـ هل تستطيع غلق النّافذة؟ ٣ ـ لا تغلق النّافذة.

الافتراض المُسبق هنا معروف من قبل طرفي الكلام، وهو وجود نافذة مفتوحة. لكن إن افتقدنا هذا الفرض المسبق، فالمُتَلقّي قد يُخفِق في فهم الرّسالة اللغَويَّة ومن ثمّ لا يتفاعل معها، ولا يُحقّق انجازًا أو يقابلها برسالة لغويّة بعيدة كلّ البعد عن الرّسالة الأولى تجاهُلًا منه، والسّبب أنّ الخلفيّةَ غيرُ مُشتركة بين المُتكلّم والمُتَلقّي(٢٣)، فمثلًا تسألُ شخصًا عن شيء لا يعرفه، فهو هنا يقف واجمًا عن الجواب، أو أنه تغيب عنه الأسس المعرفية التي يمتلكها المُتكلّم، وهنا يغمض عليه مراد القائل كغموض وصية الإمام الصادق عليه السلام على أبي جعفر المنصور: فقد روي عن أبي أيّوب الجوزي، قال: بعث إليّ أبو جعفر المنصور في جوف الليل، فأتيته، فدخلتُ عليه، وهو جالسٌ على كرسيٍّ وبين يديه شمعة، وفي يده كتاب، قال: فلمّا سلّمت عليه رمى بالكتاب إليّ، وهو يبكي، وقال: هذا كتاب محمد بن سليمان يخبرنا أنّ جعفر بن محمد قد مات، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ـ ثلاثًا ـ، وأين مثل جعفر؟! ثمّ قال لي: اُكتب إنْ كان أوصى إلى رجل بعينه، فقدّمْهُ واضربْ عنقه، قال: فكتبتُ، وعاد الجواب: أنّه قد أوصى إلى خمسة: أحدهم أبو جعفر المنصور، ومحمد بن سليمان، وعبدالله، وموسى، وحميدة... فقال المنصور: ما لي إلى قتل هؤلاء سبيل(٢٤).

وهنا لم يدرك أبو جعفر المنصور حقيقة القصد عند الإمام الصادق، ولو أدركها لَعَلِم أنَّ الإمام الصادق عليه السلام لم يُوصِ لغير الإمام الكاظم عليه السلام؛ إذ إنّه من المحال أنْ يكونَ قد أوصى إلى الخليفة أو الوالي، فقد ثبت ظلمهما للرعيّة ولا ينال الإمامة من وُسِمَ بالظُّلم(٢٥)، ولا يصدق أنْ ينسبَ الأمر لزوجته؛ فلم يعهد في مذهب أهل البيت أنْ أسندت الإمامة لامرأة، ولا يمكن لعبدالله الأفطح أنْ يتولاها، فشرط الإمام الصلاح والعصمة والسلامة من العيب، ولم يكن عبدالله كذلك(٢٦)، والفطح في المعجم من العرض، و((رأس أفطح ومفطوح ومفطح ومفرطح عريض))(٢٧)، وأيّا كان معنى الفطح، فهو لا يخلو من أن يكون عيبًا، والإمام لا يكون إلا سالمًا من العُيوب(٢٨)، فلم يبق إذن إلا الإمام الكاظم عليه السلام، ومن هنا ثبت أنّ الرواية لا تخلو من الاستناد إلى الافتراض المسبق الذي غاب عن الخليفة

الدوانيقيّ، فلم يدرك المغزى، فكان توظيف الافتراض المسبق ومقامات النَّصّ أداة في حفظ روح الإمام من أن يقتل، لتستمر الأمة تنعم بوجوده عليه السلام.

ب ـ **الأقوال المضمرة:** وهي الأقوال التي تحتوي قدراً من المعلومات الملحوظة، ومثالها قول القائل: (إنّ السماءَ تمطرُ)، فالسّامع أمامه جملة من التأويلات الدلالية[٢٩] (أي الفهم)، فمثلًا من المقترحات:

١- المكوث في بيته.

٢- التريث بالخروج إلى أنْ ينتهي المطر.

٣- المبادرة بالخروج قبل أنْ يشتد هطول المطر.

٤- اصطحاب المظلّة عند الخروج.

٥- شكر الله على نعمته.

وهذه التأويلات وسواها مرهونة بالطّبقات المقاميّة التي يُنجز في ضمنها الخطاب، وترافقه في أثناء الكلام. وممّا يمثّل هذا في أقواله عليه السلام قوله: ((احفظْ لسانَكَ تعزَّ، ولا تُمكِّنِ الناسَ من قيادِ رَقَبتكَ فتَذُلّ))[٣٠]، والمقصد هنا يحتمل إضمار قول، وهو أنّ حفظ اللسان ينبغي أنْ يكونَ عمّا يضرُّه، وهذا يقود إلى أنْ يغدو صاحبه عزيزاً، وليس من المعقول أنْ يكون حفظه عمّا يعزّه؛ فمن المحال أنْ يطلب الإمام ذلك، ودلَّ الشّطر الآخر من الكلام على الكناية عن الانجرار وراء أهواء المُضلّينَ وفسح المجال للسان بأنْ يفشو بالأمراض من غيبة ونفاق وحسد... فهذا مصيره الذلة....

و((روي أنه سئل: ما تأويل قول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (الملك: ٣٠)، فقال: إذا فقدتم إمامكم، فلم تروه، فماذا تصنعون؟))[٣١]، فقد دلّ بقوله أنّ المراد بالماء المَعِيْن هو الإمام الغائب، وهو وإنْ لم يصرِّحْ به إلا أنّ السياق أثبت ذلك، وتمثيله بالماء المعين كناية عن كون الإمام معدن الحياة... وقوله (فماذا تصنعون؟) يدلُّ على كلام كثير، فهم:

١- قد يتيهون ظُلالًا

٢- يكثر البلاء عليهم

٣- يكون بأسهم شديداً عليهم

٤- سيرتوون من ماء كدر، ويستطيبون إلى قذاه.

أو كل ما يحتمل المعنى من تأويل.

ومن مظاهر الأقوال المضمرة قوله عليه السلام لهشام: ((يا هشامُ إنّ الزرعَ ينبُتُ في السَّهْلِ، ولا يَنْبُتُ في الصّفا، فكذلك الحكمةُ تعمُرُ في قلبِ المُتَواضِعِ، ولا تَعْمُرُ في قلبِ المتكبِّرِ الجبّارِ؛ لأنّ اللهَ جعل التواضعَ آلة العقل، وجعل التكبُّر من آلة الجهلِ، ألم تعلم أنَّ من شمَخَ إلى السَّقْفِ برأسِهِ شَجّهُ، ومَنْ خفضَ رأسَهُ اسْتظلّ تحته، وأكنّهُ))[٣٢]، فهذه الحكمة تضم بين طياتها دلالات ومعاني أكثر من ألفاظها، فقوله (إنّ الزرع ينبت في السّهل، ولا ينبت في الصّفا) لا يقصد به ظاهر هذا الأمر، وإنّما يُكَنّي به عن قلب الإنسان، فكلّما كان رقيقًا قبِل الزرع على أنّ المقصود بالزرع هنا هو الحكمة، وكذا ختام قوله ليس المقصود منه ظاهره، أي رفع رأس وتعرضه للجرح...، وإنّما عَنى به التكبر ومحاولة النظر فوق الحدّ المُقرّ له...، ومثل ذا كثير في كلامه عليه السلام، نترك للقارئ التأمل في قوله عليه السلام في الدنيا: ((يا هشامُ مَثلُ الدنيا مثلُ ماءِ البحرِ كلّما شربَ منه العطشانُ ازدادَ عَطَشًا حتى يقتلَهُ))[٣٣].

٤- نظرية الملاءمة: وهي أنّ المُتكلِّم يراعي أحوالي المُتَلقّي ويلائم كلامه بحسبه، وهذا يقابله في بلاغتنا العربيّة مصطلح (مطابقة الكلام لمقتضى الحال)[٣٤]، على أنّ هذه النّظريّة تستوجب على المُتكلِّم أنْ يكونَ ذا مكانة كلاميّة عالية، ولا شكّ أنّ الإمام كان يضع كلَّ كلام في محلِّه بدليل أنّه كان للطافة كلامه يجذب بالمُتَلقّي إلى التأثر فيما يقول، وهو القائل: ((التودّد إلى النّاس نصف العقل))[٣٥]، وهذا الحديث هو الشّعار الأمثل لتحقيق نظرية ملاءمة رائعة؛ فقد جاء بـ (إلى الناس)، والناس لفظة عامة تشمل المخالف والمؤالف، الكبير والصغير، تشمل الغني والفقير، بل تشمل من انتسب للإسلام ومن لم ينتسب، كل هذه الأطياف لا بُدَّ من التودُّد إليهم في التعامل، وهذه النظرة الواسعة هيَ التي يريدها الإمام ويريدها الدين، وقد قال عليه السلام موضحًا كيفية إسداء النَّصيحة لمن يحتاجها: ((تلطّفْ له في النَّصيحة، فإنْ ضاق قلبه، فلا تعرضن نفسَك للفتنة))[٣٦]، أي إذا رأى الناصح اسوداد قلب المنصوح

فعليه أنْ يكفَّ حذَرًا من الوقوع في مَغَبّة الفتنة، وعُرِف مثل هذا عند غرايس بمبدأ التأدب، فقد رآه بأنّه مهم في تواصل العَمليَّة الكلامية(٣٧)، وزاد ما عند الإمام على ما جاء به غرايس بأنّ المُتلقّي إذا لم يستجبْ بالرغم من التأدب معه والتلطف فيجب تركه وتجنّبه؛ لأنّ الرّسالة قد تعود بالضّدّ على المتكلّم.

ومثلما رأينا وضوح نظرية الملاءمة في كلامه عليه السلام أو مبدأ التّأدُّب سنرى وضوح سائر الأمور، بل إنّ هذا الأمور ليس ببدعٍ من القول على موروثنا الفكريّ؛ فهي موجودة مع تطبيق فعّال على النّحو ممّا روي عن أبي حمزة أنّه قال: كنتُ عند أبي الحسن، إذ دخل عليه ثلاثون مملوكًا من الحبش قد اشتروهم له، فتكلّم غلام منهم، وكان جميلًا من الحبش، فأجابه الإمام موسى عليه السلام بلغته، فتعجّب الغلام، وتعجّبوا جميعًا، وظَنُّوا أنّه لا يفهم كلامهم، فقال له الإمام عليه السلام: إنّي أدفع إليك مالًا، فادفع إلى كل واحد منهم ثلاثين درهمًا، ويذكر بعدها الراوي أنّهم خرجوا، وبعضهم يقول لبعض: إنّه أفصح منّا بلغتنا، وهذه نعمة من الله علينا، أي إنّهم تأثروا به عليه السلام تمام التأثر، أي تحقق المبدأ التّداولي من تحقيق الفائدة من الكلام وجعْله مؤثرًا، وهذا ما أثار استغرابًا عند الرّاوي علي بن أبي حمزة، فقال: فلما خرجوا، قلت: يا ابنَ رسول الله، رأيتك تكلّم هؤلاء الحبشيّين بلغاتهم؟ قال: نعم. وأمرتَ ذلك الغلام من بينهم بشيءٍ دونهم؟ قال: نعم أمرتُهُ أنْ يستوصي بأصحابه خيرًا، وأنْ يُعطي كل واحد منهم في كلِّ شهرٍ ثلاثين درهمًا؛ لأنّه لّما تكلّم كان أعلمهم، فإنّه من أبناء ملوكِهم، فجعلته عليهم، وأوصيته بما يحتاجون إليه، وهو مع هذا غلام صدق(٣٨).

إذا كانت التَّداوُليَّة تشترط وحدة اللغة بين المُتكلِّم والمُتَلقّي من أجل أنْ يحدث التّواصل ـ؛ فقد كان لزامًا على من يبعثه الله نبيًّا(٣٩) أو وليًّا أنْ يكون عالمًا بلغات مَنْ أرسلَ إليهم، فالإمام كان على علمٍ بلغة مَن يكلم، ولو جهل لغتهم لَما كان إمامَهم، والنّاس أعداء ما جهِلوا.

وتوضّح الرّواية ما عُرِف سابقًا بالاستلزام الحواريّ؛ ففي القول: (لأنّه لّما تكلم كان أعلمهم؛ فانّه من أبناء ملوكهم، فجعلتُه عليهم، وأوصيته بما يحتاجون إليه، وهو مع هذا غلام صدق)، أقرّ الإمام بتقدم ذلك الصّبيّ على أقرانه؛ لأنّه رآه قد تقدّمهم في الحديث، فكان مندوبهم، وحينَ أجابه الإمام أجابه بما يعرف الآن بنظرية الملاءمة، فقدمه، وأكرمه؛ إذ راعى مقتضى حاله كونه عند الإمام (غلام صدق).

وقد حدد (أوستن) ذلك في ضمن معايير مقاميّة، وهي ضرورة لنجاح الفعل اللغويّ وصيانته من الإخفاق، وتعني أنْ يكون هناك اتفاق عرفيّ ومؤسَّساتيّ مقبول ومتعارف عليه لدى المُتشاركين في عملية التّبليغ...، ويجب تطبيق هذا الاتفاق في أحوال ملائمة وبوساطة أشخاص مُناسبين، فلا يمكن أن يفتتح الجلسة شخص اعتياديّ غير مخول له ذلك[٤٠].

وهذا الذي نقول عنه إنّهُ دراسة لغويّة حديثة نجده في تفرّس الإمام في معرفة تقدّم ذلك الغلام الحبشيّ على أقرانه، فكونهم سمَحوا له بالتكلّم دونهم، فهذا يعني أنّهم يُكنُّون له الاحترام ويقدّمونه عليهم، فليس هو شخصًا اعتياديًّا بينهم؛ لذا كان المخوَّل له في الحديث.

ونجد الراوي في الرواية لم يفهم ما حدث إلّا بعد أن فهّمه الإمام، والسبب أنّه غاب عنه ما يعرف الآن بالاستلزام الحواري الذي يتطلب إمكانية إدراكية عند المُتكلّم والمُتَلقّي....

وحين أمّـرَ الإمام الغلام عليهم أدلى هذا بما ذكر من التراتبيّة، فكونه أعلاهم منزلة يكون الامتثال إلى كلامه أيسر مما لو وكُلَّ غيره بتولي شؤونهم.

ملخص الأمر أنّ العلاقة بين طرفي الكلام كانت سبيلًا إلى انبثاق طائفة من الوسائل التّداوُليَّة، فالتّداوُليَّة تشخص التقنيات الخطابيّة وتبين أسباب التواصل وعدمه إلى الفعل التأثريّ، هذه العلاقة تدعو إلى تحقيق فائدة كلامية وراء كلّ نصّ، والسبيل إلى هذه الغاية يتأتى فضلًا عمّا ذكر بقضايا تداوليّة تُبان في المبحث التّالي.

ـ قضايا التّداوُليَّة بحسب الغاية التّداوُليَّة

هناك أكثر من قضيَّة تخلق لنا الفائدة من النَّصّ، وهي التأثير بالمُتَلقّي، وعلى النّحو الآتي:

ـ القصْديَّة:

يقصد بها مقاصد المُتكلّم وغاياته وأهدافه من الكلام؛ أي إنّ المُتكلّمَ يكون حاضرًا في نصّه[٤١]، أو إنّ ((القصْديَّة: هي قدرة العقل على أنْ يُوجّه ذاته نحو الأشياء أو يمثّلها. إنّ التّمثيل هو الوظيفة الأساسية لعقولنا عندما نعتقد ونفكر ونخطّط ونأملُ ونرغب ونتصور فإنّنا نمثل العالم، وهذا هوَ ما يجعل حالاتنا العقليّة حالات قصْديَّة))[٤٢]، أي افتراض تحقق الغرض من الكلام، وأفضل أسلوب يؤدّي هذه الغاية (التوكيد) في اغلب صوره ((وإنّما يحتاج إليه، ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع

الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها))[٤٣]، ومثل هذا ما جاء في قوله عليه السلام بالتزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ((لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهنّ عن المنكر، أو ليستعملنّ عليكم شراركم، فيدعو خياركم، فلا يستجاب لهم))[٤٤]، وقد تعاضد هنا المؤكدان (لام الأمر، و نون التوكيد الثقيلة)، وتكرّر كلّ مؤكّد ثلاث مرّات؛ ليعرب عن رغبة الإمام الشّديدة في الحثّ على شعيرة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

وتأتي مكانة التّوكيد من أنّه ((كثير الورود في لغة التّواصل اليوميّة، وليس مجرد وظيفة نحويّة محدودة، وهو الذي عناه ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) حين عقد له بابًا في كتاب الصّاحبي سماه الإشباع والتأكيد))[٤٥]، ومنه قوله عليه السلام: ((إنّ الأرضَ لا تخلو من حُجَّة، وأنا والله ذلك الحجةُ))[٤٦]، فهذا التّوكيد الوارد بـ (إنّ) والقسم غرضه تثبيت منزلة الإمام، وهذه غاية التوكيد في سائر كلامه عليه السلام[٤٧]، فلفرط حبه بإصلاح الناس كان يؤكد كلامه ويقرره.

ـ أفعال الكلام:

وقد يطلق عليها بالأفعال اللغَويَّة، وهي ظاهرة الأعمال اللغَويَّة غير المباشرة، فالذي يريد أنْ يأمر صديقه بفتح النافذة يمكنه أنْ يتجنّبَ الأمر المباشر، فيقول: (الجو حارٌّ أو أشعر بالاختناق) بدلًا من (افتح النافذة)، أو يستفهم منه (هل يمكنك فتح النّافذة)، وهذه ألطفُ من الأمر المباشر[٤٨]، وحقيقة الأمر أنّ استعمال الأسلوب المناسب للمقام الخارجيّ هو الذي يؤدّي إلى تحقيق الفائدة، فلو كان ذلك السّامع لا يعي مقصد المُتكلّم كان يمكن أنْ يقول: (نعم استطيع)، ولا يقوم بفتح النافذة...، ومع افتراضنا تحقق إدراك المقام الخارجي للكلام، فسيكون ((الفعل الكلامي نواة مركزيّة في الكثير من الأعمال التّداوُليَّة، وفحواه أنّه كلّ ملفوظ ينهض على نظام شكليّ دلاليّ إنجازيّ تأثيريّ وعلاوة على ذلك يُعدُّ نشاطًا ماديًا نحويًا يتوسّل بأفعال قوليّة إلى تحقيق أغراض إنجازية كالطلب والأمر والوعد والوعيد... الخ وغايات تأثيريّة تخصّ ردود فعل المُتلقّي كالرفض والقبول))[٤٩].

ومن هذه الأفعال الكلاميّة فعل التحذير: وأمثلته كثيرة في كلام الإمام، فقد كان دائم التحذير من التبعات التي تُوْدي بصاحبها وتُوقع به، ومن ذا قوله عليه السلام، وقد وقف على قبر: ((إنّ شيئًا هذه آخره لَحقيقٌ أنْ يُزْهَدَ في أوّله، وإنّ شيئًا هذا أوّله لحقيقٌ أنْ يُخافَ آخرَهُ))[٥٠]، لقد كانَ بإمكانه عليه السلام أنْ يقول للنّاس تجنّبوا عذاب القبر...، اخشوا عذاب

القبر، عليكم أنْ تكونوا أناسًا صالحين، جدُّوا في طلب الآخرة، حذارِ من الدنيا،... إلى غير ذلك من الجمل الأمريّة إلّا أنه عليه السلام عدَلَ عن ذلك إلى أسلوب تلميحيّ يتضمّن كل الجملة التي ذكرناها بأسلوب تمثيليّ من وقوف على قبر وطرح كلام بصورة عامّة كي لا يخدش مشاعر أحد.

وقد يكون الأسلوب التّلميحيّ بتوجيه الكلام إلى شخص، والمراد به الأمّة الإسلاميّة مثلما كان القرآن الكريم يأمر النّبيّ صلى الله عليه وآله والمراد بذلك في كثير من المواضع (أمته)، ومن هذا النّمط ما نجده في قوله عليه السلام: ((يا هشامُ إيّاكَ والكبرَ على أوليائي والاستطالةَ بعلمك فيمقُتُكَ اللهُ؛ فلا تنفعُكَ بعدَ مقته دُنياك ولا آخرَتُك... يا هشامُ إيّاك ومُخالطةَ النّاسِ والأنسَ بهم إلا أنْ تَجِدَ منهم عاقلًا ومَأمونًا))[٥١]، فالإمام لا يعني هشامًا فقط، بل يعني كلّ من اتخذ سبيل هشام بتحصيل المعارف وتوجيه الناس، وغرض التحذير هنا تجنُّب الكبر، وتجنُّب التّطاوُل على النّاس، وتجنُّب مخالطة النّاس الذين هم ليسوا من العقلاء المأمونين، فهؤلاء إفسادهم أكثر من إصلاحهم.

ومن الأفعال الكلامية غير التحذير نلحظ (الوعد)، فإذا كان ذاك الغرض يأتي في الأمور المخوفة فهذا يكون في الأمر الحسن، نحو قوله عليه السلام: ((إذا كانَ يوم القيامة نادى منادٍ: أين حواري محمد بن عبدالله رسولِ اللهِ الذين لم ينقضوا العهد؟ فيقوم سلمانُ والمقدادُ وأبو ذرٍّ...، ثم ينادي أينَ سائرُ الشيعةِ مع سائرِ الأئمة عليهم السلام يوم القيامة، فهؤلاءِ المتحورةُ أولُ السابقينَ وأول المقرَّبين وأول المتحورين من التابعين))[٥٢]، وهذا وإنْ كان وصفًا بالثناء إلا أنّ غرضه إسداء الأجر لمستحقيه، وأنّ الفضل كُلَّ الفضل إنّما يكون هناك يوم القيامة، ومن جهة أخرى يحمل السّامعين على التزام الشرعِ الصحيح بالاهتداء بنهج العترة وعدم الحياد عنه بُغية الفوز والسّعادة يوم الفزع الأكبر.

وكذا الحال مع قوله عليه السلام: ((صلاة النّوافل قربان إلى اللهِ لكلِّ مؤمن))[٥٣]، فهذا الحديث لا يبيِّن فضل أداء النوافل فحسب، بل يدعو إلى الحثّ والإرشاد على إقامتها كونها من أبواب التقرّب إلى الله تعالى، فعلى المؤمن أنْ لا يتركها.

ويلحظ الباحث أنّه لا يمكن تحميل الخطاب الإمامي فعلًا كلاميًّا واحدًا، ففيه من الغنى اللغويّ ما يجعله مائدة لكثير من الأطياف، فلو أخذنا ـ مثلًا ـ ما قاله عليه السلام في الدعاء:

((الدعاء أفضل من قراءة القرآن؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (الفرقان: ٧٧)، وإنّ الله عزّ وجلّ ليؤخّرُ إجابة المؤمن شوقًا إلى دعائه، ويقول: صوت أحبّ أنْ أسمعَهُ ويعجل إجابة المنافق، ويقول: صوت أكره سماعه))[٥٤].

نجد في بداية هذا النَّص الوعد لأجل الامتثال، والحثّ على الأداء، والتّرغيب في الدّعاء، لا أنْ يُخبرَ بأنّ الدّعاء أفضل من قراءة القرآن فقط، بل الحثّ الشّديد...، والتّرغيب في التماس الدّعاء، وقد يبعد ذلك عن ذهن المُتلقّي، كيف يكون الدّعاء أفضل من قراءة القرآن؟! هنا يأتي تّعليل الإمام الحجاجي (لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾)، ويمكن أنْ يعرف هذا بالحجاج بـ (تقدير اعتراضات المتلقي[٥٥]) كما سيأتي.

أمّا القول (وإنّ الله عزّ وجلّ ليؤخر إجابة المؤمن شوقًا إلى دعائه)، فهذا فيه (الدعوة إلى عدم اليأس)، والتشجيع على الاستمرار بالدعاء في حالة تأخر الاستجابة عسى أن يكون صوته مصداق قوله (صوت أحبّ أنْ أسمعه)، ودلّ القول الأخير (ويعجل إجابة المنافق، ويقول صوت أكره سماعه) على تحقير المنافق في كل حال، وإنْ غنمَ وكسبَ.

ـ الحجاج:

الأسلوب ((كما يقول بيفون في تعريفه الشّهير: هو الإنسان أو الرّجل، وقد نافحَ بوجه خاص فقه اللغات الحديث ذو النّزوع المثالي عن هذا المفهوم...، وهذه النّزعة الكلاميّة الخطابيّة الجدليّة تتجلى بنوع خاص في الأسلوب الحجاجي))[٥٦]، وأساليب الحجاج المعهودة، هي[٥٧]:

أ ـ النقض: وهو أنْ يذكر المعترض شاهدًا يبطل دليل الخصم، نحو ما روي أنّهُ دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله عليه السلام، ((فقال له: رأيتُ ابنَك موسى يُصلّي، والنّاس يمُرّون بين يديه، فقال أبو عبد الله عليه السلام ادعُ إليّ موسى، فدعاهُ، فقال له في ذلك، فقال: نعم يا أبة، إنّ الذي كنت أُصلّي له كان أقرب إليّ منهم، يقول اللهُ تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، فضمّهُ أبو عبد الله إلى نفسه، ثم قال بأبي أنت وأمي يا مَوْدعَ الأسرارِ))[٥٨].

ومنه ما حدث حين ذهب المهديّ العبّاسيّ إلى أنّ الخمْرَ لم يُحرَّم في القرآن، فردَّه

الإمام عليه السلام: ((إذ قال الإمام عليه السلام: " بل هي محرمة في كتاب الله "، فقال: في أي موضع هي محرمة؟ فقال عليه السلام: قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (سورة الأعراف: ٣٣)، ثم بعد أنْ تناولَ عدّة أشياء أخرى حرّمت في هذه الآية، قال: وأمّا (الإثم) فإنّها (الخمرة) بعينها، وقد قال الله في موضع آخر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (سورة البقرة: ٢١٩)، والإثم الذي ذكر أنّه حرام في سورة الأعراف بشكل صريح أُريد منه الخمر والميسر في سورة البقرة؛ وعليه فالخمر محرم في القران بشكل صريح))[٥٩].

ب ـ **المعارضة:** لغة المقابلة على سبيل الممانعة، وفي الاصطلاح أنْ يُدلَّلَ على نقيض مدلول الخصم أو على نقيض إحدى مقدّماته، و من ذلك ما روي ((أنّ أبا يوسف أمره الرشيد بسؤال موسى بن جعفر عليه السلام قال ما تقول في التّظليل للمحرم قال: لا يصلح، قال: فيضرب الخباء في الأرض، ويدخل البيت قال: نعم، قال: فما الفرق بين الموضعين؟ قال أبو الحسن: ما تقول في الطّامث؟ أتقضي الصّلاة؟ قال: لا، قال: فتقضي الصّوم؟ قال: نعم. قال: و لمَ؟ قال: هكذا جاء؟ قال: أبو الحسن وهكذا جاء هذا))[٦٠].

ج ـ **التّسليم الجدليّ:** وهو أنْ يسلِّمَ ببعض قضايا خصومه؛ لكي يبرهن على ما يترتب عليها من بطلان أو فساد... نحو سؤال بعضهم الإمام عن المعصية؟ فقال عليه السلام: ((إنّ المعصيّة لا بدّ أنْ تكون من العبد، أو من ربه، أو منهما جميعًا، فإنْ كانت من الربّ فهو أعدل وأنصف من أنْ يظلم عبده، ويأخذه بما لم يفعله، وإنْ كانت منهما فهو شريكه، والقويّ أولى بإنصاف عبده الضّعيف، وإنْ كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر وإليه توجّه النهي وله حقّ الثواب والعقاب؛ ولذلك وجبت له الجنّة والنار))[٦١].

ومنه ما روي من قوله عليه السلام لنفيع الأنصاريّ وكان بذيئًا لا يُؤمن شرُّه، وقد عزم على إيذاء الإمام عليه السلام، وأقسم أنْ يسوءه، فلمّا خرج الإمام ((أخذ نفيع بلجام حماره، وقال: من أنت يا هذا؟ قال: يا هذا إنْ كنت تريد النسب؟ أنا ابن محمد حبيب الله ابن إسماعيل ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله، وإنْ كنت تريد البلد فهو الذي فرض الله على المسلمين ــ إنْ

كنت منهم - الحجّ إليه،... وإنْ كنت تريد الصّيت والاسم فنحن الذين أمر الله بالصّلاة علينا في الصّلوات المفروضة، نقول: اللهمّ صلِّ على محمد وآل محمد، فنحن آل محمد. خلِّ عن الحمار، فخلّى عنه، ويده ترتعد وانصرف مخزيًا))[٦٢].

د. التفريق: وهو أنْ يميز في قول الخصم أو قوله بين معانٍ متباينة فيما بينها، وسنجده في حادثة الإمام مع العمريّ لاحقًا.

هـ ـ تقدير اعتراضات المتلقي[٦٣]: وهو أنْ يفترض معترضًا محتملًا بصيغة المفرد (قال)، أو بصيغة المبني للمجهول (قيل)، أو بصيغة الجمع (قالوا)، ويمكن ان يكون منه ما جرى مع نفيع الأنصاريّ السابق.

و ـ استخراج الشبه وإثارة الشكوك، وهو أنْ يتعقب نتائج أقوال الخصم فيما تفضي إليه من إشكالات أو احتمالات لا تقبل، كما في قصة الإمام والزاهد الآتية.

المبحث الثاني

رقيُّ القضايا التداوُليَّة في الخطاب الكاظميّ

تنماز التَّداوُليَّة بأنّها علم استعمال اللغة وكون أهل البيت كانوا فرسان اللغة بلا منازع حتّى قال أمير المؤمنين فيهم عليهم السلام: ((وَإِنَّا لأُمَرَاءُ الْكَلاَمِ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ))[٦٤]، فرقيُّ لغتهم جعل رقيَّ تداوليتها أمرًا محتمًا، وهو ما سنراه بطائفة من المسائل التي جرت مع الإمام الكاظم عليه السلام.

ـ قصة الإمام والعمريّ

روي ((أنّ رجلًا من ولد عمر بن الخطاب كان بالمدينة يؤذي أبا الحسن موسى عليه السلام، ويسبّه إذا رآه، ويشتم عليًا عليه السلام، فقال له بعض جلسائه: دعنا نقتل هذا الفاجر، فنهاهم عن ذلك وزجرهم أشد الزّجر، وسأل عن العمريّ، فذكر أنّه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب، فوجده في مزرعة، فدخل المزرعة بحماره، فصاح به العمريّ لا تطأ زرعنا، فتوطّأه أبو الحسن عليه السلام بالحمار حتّى وصلَ إليه، فنزل، وجلس عنده، وباسطه، وضاحكه، وقال له: كم غرمت في زرعك هذا؟ فقال له: مئة دينار. قال: فكم ترجو أنْ تصيب فيه؟ قال: لستُ أعلم الغيب ! قال: إنّما قلت لك كم ترجو أنْ تصيب فيه؟ قال: أرجو فيه مئتي دينار.

قال: فأخرجَ له أبو الحسن عليه السلام صرة فيها ثلاثمئة دينار، وقال: هذا وزرعك على حاله والله يرزقك فيه ما ترجو. قال: فقام العمريّ فقبّل رأسه، وسأله أنْ يصفح عن فارطه، فابتسم إليه أبو الحسن عليه السلام وانصرف. قال: وراح إلى المسجد، فوجد العمري جالسًا، فلما نظر إليه قال: " الله اعلم حيث يجعل رسالته "، قال: فوثب أصحابه، فقالوا: ما قصتك قد كنت تقول غير هذا؟ قال: فقال: لهم قد سمعتم ما قلت الآن، وجعل يدعو لأبي الحسن عليه السلام فخاصموه وخاصمهم، فلما رجع أبو الحسن إلى داره قال لجلسائه الذين سألوه في قتل العمري: أيّما كان خيرًا ما أردتم أو ما أردتُ؟ إنّني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم وكفيت به شره))[٦٥].

والآن نجد هذه القصّة تزخرُ بالحوار التّداوليّ بين الإمام وشخص كان يناصِبُ العداء للإمام عليه السلام وكان هذا الأمر على مرأى من النّاس ومن أصحاب الإمام الذين تضجّروا لذلك الفعل السيِّئ المتكرّر من العمَريّ إلا أنّ الإمام بحنكتهِ علّمهم كيفَ ينبغي أنْ يكون الردّ.

وأولى قضايا التّداوُليَّة الموجودة في هذه القصّة هي مراعاة حال المخاطب، أي (نظرية الملاءمة) حسب الرُّؤية التّداوُليَّة، فالإمامُ شفيقٌ على خصمِه؛ وهذا الخصم بنظر الإمام مسكينٌ وليس عدوًّا، وبه حاجة إلى عناية من نوع خاصّ، فهو يفعل الجرم العظيم بحق الإمام، والإمام يعفو عنه ويصفح، وفي الوقت الذي نجد فيه الإمام هنا رؤوفًا نجده زاجرًا لأصحابه المقرَّبين، فحين قال له بعض جلسائه: دعنا نقتل هذا الفاجر (نهاهم عن ذلك، وزجرهم أشد الزجر)، فأصحابه صالحون لا ينبغي أنْ ينزلوا إلى هذه المرحلة بأن يقدموا على قتل ذلك الرجل، بل الأهم هداية الرجل، والوقت لا يسمح بأن يعرضَ عنهم الإمام كما أعرض عن العمريّ؛ فعدم إجابته لهم يعني إقدامهم على قتل العمريّ، و كان عليه السلام قاسيًا عليهم ليدلّ على عظمة القتل، وليكون رادعًا من أنْ يقدموا على فعله... زجرهم لأنّهم عرفوا الحق وأدركوه فلا يمكن لهم أن يتركوه في لحظة ما.

أمّا ذلك العمري، فلم يَرَ نور الهداية بعد، إذن فالملاءمة هنا تحققت على أوجُهها؛ ففي بادئ الأمر أخطأ العمريّ وأخطأ أصحاب الإمام أيضًا إلا أنّ الإمام زجر الأصحاب دون العمري مراعاة لمقام كل منهما؛ فمعاملة الرجل السقيم ليست كدرجة معاملة الرجل السليم، وكأنه (ليس على الأعمى حرج).

ومن أبرز قضايا التَّداوُليَّة التي نلحظها أيضًا (القصْديَّة)، التي هي مقاصد المُتكلِّم وغاياته وأهدافه من الكلام؛ والإمام كان يهدف بكل كلمة قالها إلى أمر ما، فهو حين يقول للعمري بعد أنْ أعطاه المال (هذا وزرعك على حاله)، يريد تلطيف التوتّر الذي كان عند العمري، وقد أوضح بهذه العبارة أنّهُ أعطاه المال بلا عوض، فالعمريّ كونه يتعرض للإمام بالسّوء إذا حصل على عطية الإمام ربما لا يطمئن إليها، خلا أنّ الجملة الحاليّة (وزرعك على حاله) بيّنت عزيمة المُتكلِّم على توضيح شيء للسامع لا يتضح إلا بذلك القصد الذي أراده الإمام.

ومن جهة أخرى نجد أنّ القصّة بدأت فيما بدأت به باستعمال الاستفهام، وهذا الأسلوب إشراك للمتلقي، وتأكيد على مكانته، فلم يكن سامعًا سلبيًّا، بل اشترك بالعَمليَّة الكلاميّة، وصولًا إلى ترويض نفسه الجامحة في معاداة الإمام، ففي الوقت الذي كان لا يطيق التكلّم مع الإمام اُسْتُدرِج إلى الحديث ولكون النّاس درجات وطبقات وجَبَ أنْ يكون الحديث بما يوافق نوازعهم، وهذا لا يتأتّى إلا بالحديث عنهم خاصّة؛ لمكانة هذا الأمر في مراعاة الفروق الفرديّة؛ لهذا كانت خلوة الإمام عليه السلام بالعمريّ من دون أنْ يكون هناك أيُّ مُرافِقٍ مهمّةً في سبيل تركيز الانتباه على المشكلة من دون تشتيت؛ فقد يكون فيهم من يفسد أمر الهداية لعجَلَةٍ أو سوء فِهم، والنَّصيحة في السرّ أفضل منها في العلَنِ. أي إنّ الإمام اختار الظروف المناسبة للمحادثة، فقد لا يستسلم ذلك العمريّ لو كان ثمة مرافق للإمام أو لو كان الحديث في المدينة حيث الناس الكثيرون، بل قد يرفض هدية الإمام ترفعًا عليه عليه السلام، إذ يراه عدوًّا له، ولا ينقاد إلى هَدْيه البتّة.

إنّ الإمام بعد أن قدَّم درسه العمليّ قال لمن رام قتل العمريّ: ((أيّما كان خيرًا ما أردتم أو ما أردت؟ إنّني أصلحْتُ أمره بالمقدار الذي عرفتم وكفيت به شرّه))، والإمام هنا لا يريد أنْ يبيِّنُ انتصاره على أصحابه، وأنّهُ كسب القضيَّة، وإنّما قصد من سؤاله إسداء النَّصيحة، وعلى وفق نظرية فعل الكلام أراد بيان موضع الخطأ وذم العجلة بإشعار العجول بخطأ عجلته، فعليه أنْ يقوّم نفسه، وأنْ لا يسعى للقدوم على عملٍ تركُهُ أفضلُ من إتيانِه، أي إنّ هذا العمل كان هداية للعمريّ من جهة، وللأصحاب من جهة أخرى.

وهذا نوعٌ من الحِجاج، نوعُهُ التفريق، فقد أقنع الإمام أصحابه برؤيته، وبيَّن لهم الفرق بين قولين من أقوالهم، فبالأمس يسأله بعضهم قتل العمريّ، واليوم يسألونه كيف اهتدى

ذلك العمريّ؟!

ونستفيد من هذه القصة أنّ الكلام لا يكون منجزاً بأقوال فقط، بل كثيرا ما يحتاج إلى فعلٍ متقنٍ، باختيارِ زمانٍ مناسبٍ ومكانٍ ملائمٍ، وربّما يكون وجود الجمهور ضروريًّا، ولكن ليس دائمًا فالإنسان المنحرف الضالّ يحتاج إلى أنْ يكون الحديث معه حديثا خاصًّا منفرداً طلبًا في التّأثير غير المؤذّي للمشاعر.

زد على ذلك أنّ أهل البيت كانوا على أتمّ الرفض للغة الذّم أو لغة الخصام، وكان الحوار الهادئ المصحوب بالعطاء والمساعدة أو بالرّفق والمودّة ديدنهم في التّواصل؛ بسبب أنّ الإكرام وسيلة مساعدة في كبح جماح المعاند. ونستشفّ من هذا أنّ الإنسان لكي يكون مؤثرًا عليه أنْ لا يكون بليغًا بكلامه فقط، بل بليغًا بكلامه وأفعاله.

قصّة الإمام مع بشر الحافي

تذكرُ هذه القصّة أنه قد مرَّ الإمام ذات يوم في بغداد متطلعًا الأحداث وما يحدث في الأمّة؛ فلعله يسدي نصيحة أو يساعد محتاجًا أو يحل مشكلة، وما أكثر تلك المشكلات التي خلفها ضعف الاعتماد على الدين القويم وتناسي الفطرة النظيفة...، وفي الوقت الذي كان يتجول فيه الإمام يتأمل ما يحدث في أمة جدِّه، وبينما يمر من أحد دور بغداد ـ التي كانت لشخص يدعى بشر ـ إذا به يسمع ((الملاهي وأصوات الغناء والقصب تخرج من تلك الدار، فخرجت جارية وبيدها قمامة البقل، فرمت بها في الدرب، فقال لها: يا جارية، صاحب هذه الدار حرٌّ أم عبدٌ؟ قالت: بل حرٌّ، فقال: صدقتِ لو كان عبداً خاف من مولاه.

فلما دخلت قال مولاها، وهو على مائدة السكر: ما أبطأكِ علينا؟ فقالت: حدّثني رجل بكذا وكذا، فخرج حافيًا حتى لقي مولانا الكاظم عليه السلام، فتاب على يده))[٦٦]، لتبدأ صفحةٌ جديدةٌ في حياة بشر صفحةٌ ناصعةُ البياضِ بعد أنْ كانَ مولعًا بسواد الصُّحُف.

أقول ما الّذي قلَبَ بشْرًا رأسًا على عقب؟ إنّ الذي يتأمّل هذه القصّة يجد ثَمَّة شيء أشبه بلغز ! ولم يَعرض لي في اطلاع يسير على ما أُلِّف في الإمام الكاظم عليه السلام على سرّ ذلك التحوّل الذي أعقب مخاطبة الإمام مع جارية بشر، وكم سمعْنا تلك الحادثة على المنابر من دون أنْ نلمسَ سببًا وافيًا لتوفيق بشرٍ إلى طريق الحقّ، ولعلَّهُ يمكن التعرُّف على أسرار هذهِ

الحادثة بتوظيف القضايا التَّداوُليَّة كونَها حادثةً كلاميّة جرَتْ تحتَ ظروف وملابسات معيّنة، وتبحث في قضايا الكلام تحت سقف تحقّقَ فيه أهم مبدأ من مبادئ التَّداوُليَّة ألا وهو مبدأ التأدُّب(٦٧)؛ ذلك لأنّ الكلام يكون مقبولًا بمدى تآلفه عند المُتَلقّي، فالنّاصح لا يقول للمخاطب (انجحْ في الامتحان) على جهة الطّلب المستعلي الذي قد يُشعر المُتَلقّي بصغر شأنه كونه مأمورًا، وإنّما يقول المتكلم (الناصح): (كم أغدو سعيدًا حين أراك ناجحًا في الامتحان)، فهذا التعبير يقوم مقام قولك (انجح في الامتحان) مع حث مؤدب على الامتثال لطلب النجاح وقد جاء هذا من الصيغة الاستفهامية.

وقد تقول لشخص هل يمكنك فتحَ الباب، ولا تريد بذلك أنْ يقول: نعم أو لا، وإنّما تقصد أنْ يمتثل لأمرِكَ، فيقوم بفتح الباب لأنّك بالصيغة المصاغة أخرجت كلامك بصيغة المستفهِم السّائل لا الطّالب الآمر، وهذا أدعى لأنْ يتقبله ـ من دون انزعاج ـ لِمَا فيه من مراعاة لوجدانه.

وإذا عرفْنا هذه المقدمة نقول: إنّ الإمام استعمل مثل هذا الأسلوب لهداية (بشر) لكن في صورة مبطنة، أي على مستوى الإشارة اللطيفة والتلميح الدقيق...، ولتوضيح ذا نجزِّئ هذه القصّة إلى مشاهد ثلاثة قصيرة جدًا:

المشهد الأول: حوار الإمام مع الجارية.

المشهد الثاني: حوار بشر مع الجارية

المشهد الثالث: خروج بشر مهرولًا حافيًا خلف الإمام سائلًا التوبة.

وتفصيل ذلك أن القصّة بدأت بلقاء الإمام بالجارية، فيسألها (صاحب هذه الدار حرٌّ أم عبدٌ)، وهنا تجيب الجارية منطلقة ممّا في ذهنها: (بل حرٌّ)، وهي تعني بالحرّ ما ليس بمملوك ملك يمين، وكونها كانت جارية، أي مملوكة ملك يمين كانت تنظر إلى النّاس على وفق ما هي فيه، فأجابت الإمام عكس ما يريد، أي إنّ ما يعرف بـ (الافتراض المسبق) لم يتحقق لديها، وتنتهي هذه الحوارية القصيرة بجواب الإمام لها (صدقت لو كان عبدًا خاف من مولاه). هنا قد تكون الجارية اقتنعت بكلام الإمام، وهي لا تظنّ أنّ مفهوم الإمام شيءٌ آخر غير الذي تظنّه، ولكنّها بقيت بدهشة لماذا هذا السؤال؟ وهذه الدهشة سوف تجعلها تستحضر المشهد السّابق برمّته إذا سئلت عنه.

فلما عادت و(دخلت قال مولاها، وهو على مائدة السّكر: ما أبطأك علينا؟ فقالت: حدثني رجل بكذا وكذا)، ولا ريبَ أنّها قصّت الحادثة بما هي. الأمر الذي جعل بشرًا ينهض مسرعًا مهرولًا خلف الإمام بصورة مؤثرة يسأله التّوبة؛ إذ إنّه فهم شيئًا غير الذي فهمته الجارية، فالعبارة (صاحب هذه الدار حرٌّ أم عبدٌ) لا تعني أنّ المراد بالعبوديّة هو العبوديّة التي هي ملك إيمان، فالسّائل كان يعي حين قال (صاحب هذه الدار...) أنّه ليس مملوكًا ملك يمين، فكيف يكون مملوكًا ملك يمين من كان يملك دارًا في بغداد؟! إذن أدرك بشر أنّ المراد بالعبوديّة هي العبوديّة للمالك الحقيقي، وعرف أنّه سيحاسَب على تأخّره عن الامتثال لنداء مولاه كما هو الآن يحاسب جاريته التي تأخرت بعض الوقت، فكيف به، وقد تأخّر كثيرًا حتى غدا عبدًا آبقًا...، وبقول الإمام الأخير للجارية (صدقت لو كان عبدًا خاف من مولاه) عرّف بشرًا أنّه خارج عن مولاه حقًا، وأنّه لا بدّ من يوم يعود إليه فيه، ويمثل أمامه، ويحاسَب على كلّ صغيرة وكبيرة، لا بُدّ من وقفة ووقفات نتاج أفعال دنيئة وذنوب متعددة... هذا وذاك قاد إلى المشهد الأخير وهو أن (خرج حافيًا حتى لقي مولانا الكاظم عليه السلام، فتاب على يده)، إذن لقد توافر (الافتراض المسبق) لدى بشر، وفهم ما لم تفهمه الجارية التي نقلت إليه الحديث، و(رُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه)، فإذا عددنا بشرا المُتَلقّي رقم (٢) بعد أن كانت الجارية المُتَلقّي (١) فإنّ بشرًا نجح بفهم الرسالة الكلامية ((وممّا لا شكّ فيه أنّ المبدع ينشئ خطابه على وفق قُرّاء معيّنين حتى لا يستهلك منتوجه، ولا تتبدّل قراءته، أو تصبح رسالته تداوليّة صرفة غايتها النّفع والإخبار، وهذا من شأنه أنْ يجعل القرّاء متفاوتين ومتباينين عند تلقيهم النَّصّ))[٦٨]، ومن ثَم تباين فهم الرّسالة بين كلٍّ من الجارية وبشر.

على أن الإمام لم يقل لها قُولي له: (اعلم أنك عبد إلى الله وأنك سترجع إليه، وسيحاسبك على كل صغيرة وكبيرة...)، وإنّما اعتمد على أسلوب إيحائي يمتاز بخصائص تداولية نجملها:

١- في الكلام ما يعرف الآن تداوليًّا بمبدأ التأدب، فالإمام لم يعمد إلى النَّصّح المباشر الذي قد ينفّر المنصوح... فهو إذا وصَلته رسالة صريحة كان يمكن أنْ يستكبر، ولَمَا كان يذعن، وكيف له أنْ يذعن أمام جاريته التي حاسبها بمجرد أنْ تأخرت برهة زمنية قليلة؟!

ومثل هذا يصدق أيضًا على نظرية الملاءمة، فالإمام راعى مقام المُتَلقّي، فطرح جملة جميلة تحرّك المشاعر ولا تجرحها...، لقد كانت عبارة الإمام تلائم شخصية بشر التي كانت شخصية منحطّة لا يناسبها سماع كلام تقريري مباشر، فجاء بصورة العتب الذي لا يُشعَر به...

٢- في الكلام ما يعرف الآن تداوليًا بمضمرات القول، فالكلام موجز بُني على الإيحاء المكثف ليجعل المُتَلقّي أمام فرصة للتنقيب عن مقصد القائل؛ فما أنْ كشف الرموز كانت أرسخ في ذهنه، وأدلّ على بعثه نحو التوجه الصحيح.

إذن عرف بشر المغزى بشيء من التأمل، وعاش لحظة الفطرة فهو لا يستحيي، وهو خارج عما رسمه له سيده إنه آبق هارب، ولا بدّ أنْ يعاد إلى سيد لا يفوته الهارب، نعم سيعود في يوم من الأيام، فما الذي جعل بشرًا يتناسى ذلك ليعيش عيشته تلك العيشة المتحررة. هنا دارت الأرض ببشر ليرى نفسه بأسوء منظر وأقبح صورة. إنّها ساعة الصفر للتوبة، وقد كان الإمام المحرّك لهذه الثورة بأسلوبه أسلوب الإشارة الذي هو أفضل من أسلوب التقرير في مخاطبة الوجدان وإثارة المشاعر، وكم من تلميح أبلغ من تصريح؟!

قصة الإمام مع الزاهد عبدالله بن الحسن

تتجلّى في الرواية عن ((الرافعيّ قال: كان لي ابن عم يقال له: الحسن بن عبدالله، وكان زاهدًا من أعبد أهل زمانه يتّقيه السّلطان لجِدِّه في الدين واجتهاده، وربّما استقبل السلطان في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بما يُغضبه، فكان يحتمل ذلك له لصلاحه، فلم تزلْ هذه حاله حتى دخل يومًا المسجد، وفيه أبو الحسن موسى عليه السلام، فأومأ إليه فأتاه، فقال له: يا أبا علي، ما أحبَّ إليّ ما أنتَ فيه وأسرني به! إلا أنّه ليست لك معرفة؛ فاطلب المعرفة. فقال: وما المعرفة؟ قال: اذهب تفقه واطلب الحديث. قال: عمّن؟ قال: عن فقهاء أهل المدينة، ثم اعرض عليّ الحديث. قال: فذهب، فكتب، ثم جاء، فقرأه عليه، فأسقطه كُلَّهُ، ثُمَّ قال: اذهبْ فاعرف وكان الرجل معنيًا بدينه، فلم يزل يترصد أبا الحسن حتى خرج إلى ضيعة له، فلقيه في الطريق، فقال له: جعلت فداك إنّي احتجّ عليك بين يدي الله؛ فدُلَّني على ما تجب عليّ معرفته. قال: فأخبره أبو الحسن عليه السلام بأمر أمير المؤمنين عليه السلام وحقه وما يجب له، وأمْر الحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد، ثم سكت.

فقال له: جعلت فداك فمَن الإمام اليوم؟ قال: إنْ أخبرتك تقبل. قال: نعم. قال: أنا

هو. قال: فشيء استدل به. قال: اذهب إلى تلك الشجرة - وأشار إلى بعض شجر أم غيلان - فقل لها: يقول لك موسى بن جعفر: أقبلي. قال: فأتيتها فرأيتها والله تخدّ الأرض خدًا حتى وقفت بين يديه، ثم أشار إليها بالرجوع، فرجعت فأقرّ به))[٦٩].

أول ما يلاحظ طرح الكلام بأسلوب لا يخدش مشاعر المقابل (يا أبا عليّ ما أحب إلي ما أنت فيه وأسرني به! إلا أنّه ليست لك معرفة؛ فاطلب المعرفة)، وبناء الكلام مصدّرًا بأسلوب النّداء الذي هو (فعل كلام) الهدف منه التنبيه، وقد جاء في محلّه، فلا يكون الكلام دائمًا بحاجة إلى تنبيه إلا إذا كان المُتلقّي غافلًا أو حرص المُتكلّم على أهمية الكلام المنبَّه لأجله مثلًا، نلحظ في آيتين من سورة البقرة خصّتا نبي الله موسى عليه السلام في أثناء خطابه لبني إسرائيل فمرة ينادي ومرة لا ينادي، وذلك في قوليه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٥٤)، والثاني: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة: ٦٧)، فالآية الأولى نبّه كليم الله على أمر مهم يصعب الامتثال له؛ ففيه قتل أنفسهم؛ لذا جاء بالنداء (يَا قَوْمِ)، وفي الآية الثانية أمر يسهل الامتثال له وهو ذبح بقرة؛ لذا لم يأت بأسلوب النداء فيه.

إذن أكّد فعل الكلام (النداء) مكانة الأمر الذي سيخاطب به ذلك الرجل الزاهد.

ومن هذا يلحظ أهمية الكلام الذي أخبر به الإمام الكاظم العبد الزاهد عبدالله بن الحسن، فالمعرفة أمر مهم إلا انه لم يأتِ بصيغة طلب المعرفة مباشرة إلا بعد أنْ بسط القول من أجل ترغيب المُتلقّي في أن يكون ثَمّة طلب يراعي مقتضى حاله، وهذا ما يعرف بمبدأ التأدب، ويصدق عليه أيضًا نظرية الملاءمة.

ولم يشأ الإمام أن يصارحه مباشرة بالتفقه أو بانتهاج منهج الائمة رَأْسًا، وإنّما مهّدَ بالعبارة (يا أبا عليّ ما أحبّ إليّ ما أنت عليه وأسرني به)، وهذا من باب ذكر محاسن الإنسان أولًا، فمن الخطأ أن يواجه الإنسان بعيوبه بادئ بدء، ومن ثم كسب الإمام مشاعر المُتلقّي بهذا الأسلوب المؤدب ليصارحه بعيبٍ يراه فيه، وهو (إلا أنه ليست لك معرفة، فاطلب المعرفة)، وهنا يتساءل المُتلقّي عن المعرفة، فيكون الجواب (تفقه واطلب الحديث)،

وهذه العبارة عامّة مطلقة لم تُبيِّن مقصد الإمام الحقيقي؛ لذا (ذهب الرجل، فكتب الحديث عن مالك وعن فقهاء أهل المدينة، وعرضه على الإمام، فلم يرضَ عليه السلام)، وقد يقول بعضهم لماذا تركه الإمام ليأتي بشيء سينقضه الإمام جملة؟ الجواب إنّ ذا أمثل لمعرفة الحق الحقيق، فالامتثال له لا يتمّ إلا بعد معرفة زلل غيره، وهذا نوع من الحجاج التداوليّ القائم على (استخراج الشبه وإثارة الشكوك) كما مرَّ.

الخاتمة والتوصيات:

بعد هذه الرحلة اليسيرة القصيرة انتهى بنا المقام إلى أنّ الخطاب الكاظميّ يمكن النّظر إليه في أكثر من رؤية، وأنّه ماء معينٌ لا يعرف أطرافه... لقد جدّ بنا الأمر لاستجلاء طائفة من القضايا التَّداوُليَّة في تلك السّيرة العظيمة. فكانت من أبلغ التّصويرات التَّداوُليَّة التي بُني على جرائها تحقّق الإنجازيّة من الكلام. بل جسّدت حقَّ أهل البيت بالإمامة دون غيرهم بذكر روايات دلّت على إجادتهم للغة غيرهم، وهذا يعني إمكانية وصولهم إلى جميع الأطياف بلا وساطة، وهو أمر عجز عنه سائر من حكم الأمة من غيرهم عليهم السلام.

وتبين أنّ الإمام كان يلحظ المُتَلقّي، ويوليه مكانةً فائقة في التخاطب، وكشف البحث عن التميُّز في استعمال القضايا التَّداوُليَّة من الافتراض المسبق ومتضمنات القول، ووجد البحث بروز أسلوب الاستفهام لتفوقه في كسب المُتَلقّي وجره إلى التحاور، وبزغ استعمال الإيحاء الإماميّ كونه يقدر أن يشرك المُتَلقّي في التأمل بمقصده.

ويشيع الحجاج عند الإمام إلى حد الإقناع والتأثير، وأظهر البحث أن قصّة واحدة يلحظ فيها فنون التَّداوُليَّة على أوجها، فحادثة كحادثة العمري نجد فيها الملاءمة أو مبدأ التأدب والقصْديَّة والحجاج وأفعال الكلام....

ولعلي وإنْ كنت أزعم أنّ التَّداوُليَّة يمكنها الأخذ بحل رموز ذلك الكلام الإمامي إلا أنّ فيه ما ينتظر تطوراً أكثر وأثرى في الفكر اللساني، الذي فيه ما يتجاوز عمقًا مسارات التحليل اللغوي الجمالي.

وقد يكون البحث أشار إلى نتائجه في حينها على أنّ في الحديث تتمة وهو أن نبتني من ذاك البحث هذه التوصيات:

١- التعامل مع الجميع بلا طائفية ولا تعنصر، بل لا بد من المداراة مع مَن لا يمثلني فهذا سرّ النّجاح، وهذا أمر مهم في وقتنا الحاضر بسبب تلك الفسيفساء البشريّة المتجسدة على أرض الرافدين من التنوع في الاتجاهات والميول فضلًا عن التنوع في الانتماءات وكل هذا التّسامح كان طلبًا لتعايش سلمي رصين تسوده الألفة والمحبّة ويكتظّ بالنجاح في بناء عراق متطور.

٢- ينبغي الإفادة من المنهج التداوليّ في بناء حوار ناجح، وصولًا إلى إنسان ناجح، وقد بان في البحث أنّ الإنسان يمكن أنْ يتغير ويتحسّن حتى لو كان ممّن نُعِت بالضّلال الدّائم، أو تُصوِّر سوء عاقبته.

٣- دراسة سائر كلام أهل البيت دراسة مستفيضة في ضوء المنهج التداوليّ وصولًا إلى دراسة لغويّة ناضجة، وتوظيف ذلك في بناء حياة سليمة يشوبها الأمن والسّعادة.

هوامش البحث

(١) الأساليب التربوية عند أئمة أهل البيت عليهم السلام: ١٩٣.

(٢) ينظر: التّداوُليَّة عند علماء العرب: ٥.

(٣) تحليل الخطاب المسرحيّ في ضوء النظرية التّداوُليَّة: ٨.

(٤) شظايا لسانية: ٥٩.

(٥) السياق غير اللغوي (بحث) منشور ضمن كتاب مؤتمر الشيخ البلاغي الثالث: ١٣٧.

(٦) المناقب: ٦١١/٤، ولكن اذا رجعنا الى التفاسير بصورة عامة فسنجد آراء تفسيرية خاضعة للاجتهاد الشخصي الخائب، مما يدل على ضرورة رجوع المفسر لآهل البيت عند التفسير، وليس من الصحيح ان تجد الاستشهاد بأناس متواضعين وترك آل الرسول المكرمين، إن اهل البيت ليسوا حكرا على الشيعة فقط.

(٧) وفي النّصّ فضلًا عمّا ذكر نلمح قراءات تداوليّة أُخَر، ففيه إشارة إلى أنّهم عليهم السلام سينالهم الظُّلم، وأنّ ظالميهم لم يضرّوا إلا أنفسهم، وفي النّصّ أيضًا إشارة إلى مكانتهم العالية، فالله إنما مزجهم بنفسه تعالى لِمَا لهم من فضل وكرامة عنده تعالى، وهذه النتيجة المترتبة على هذا التفسير هي التّداوُليَّة التي تبحث عن النتيجة المتكونة من الكلام، وقد تجلى في النّصّ قضيتان تداوليتان، وهما: الافتراض المسبق بقدرة الله تعالى وتنزيهه، والقضيَّة الثانية: متضمنات القول ببيان ما سيجري عليهم عليهم السلام وبيان العاقبة السيئة لأعدائهم.

(٨) ينظر: التّداوُليَّة اليوم: ٢٨ ــ ٢٩.

(٩) إنّ المبدأ الذي اتبعته البنيوية بتجريد النَّصّ من منشئه جاء بتأثير ماركسيّ، أو بتأثير الفلسفة الوضعية لدى كونت، وهي فلسفة لا تؤمن إلا بالظواهر الحسية، وذلك بعد أن ((أعلن نيتشة في نهاية القرن الماضي (موت الإله) جاء فلاسفة البنيوية لكي يُعلنوا موت الإنسان، أو لكي ينادوا على أقل تقدير بأنّ الموجود البشري هو الآن في النزع الأخير)) [مشكلة البنية: ٢٧]، وهذا جعلها تسلط الضوء على النَّصّ فقط من دون متعلقات انشائه (مؤلف، أحوال محيطة...) مما جعلها منهجا (إن صحّت التسمية) ناقصًا، وهذا جعل البحث عن البديل مشروعًا إلى أنْ تحقق على يد التَّداوُليَّة التي درست النَّصّ في ضوء الأحوال المحيطة دراسة مستفيضة مقننة.

(١٠)في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، د.مسعود صحراوي بحث منشور ضمن كتاب التداوليات ـ علم استعمال اللغة ـ: ٢٥.

(١١) ينظر: التَّداوُليَّة اليوم: ٤٧ ـ ٤٩.

(١٢) بلاغة الخطاب وعلم النَّصّ: ١٢٤.

(١٣) ينظر: البلاغة والنقد: ٢٨٢.

(١٤) البلاغة والنقد: ٢٨٤.

(١٥) البلاغة والنقد: ٢٨٥، وسيأتي الحديث عن نظرية أفعال الكلام.

(١٦) ينظر: شظايا لسانية: ٦٣ ـ ٦٤.

(١٧) الأسس الابستمولوجية والتَّداوُليَّة للنظر النحوي عند سيبويه: ٣٣٠.

(١٨) ينظر: البلاغة والنقد:٢٧٧، ٢٩٢..

(١٩) ينظر: البلاغة والنقد: ٢٨٣.

(٢٠) الاستلزام الحواري في التداول اللسانيّ: ١٩، وينظر: اللسانيات الوظيفية: ٢٦، و الاستلزام التخاطبيّ بين البلاغة العربية والتداوليّات الحديثة، أحمد المتوكل (بحث) ضمن كتاب التداوليات ـ علم استعمال اللغة ـ: ٢٩٣ وما بعدها.

(٢١) التَّداوُليَّة اليوم: ٥٥.

(٢٢) ينظر: في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر: ٤٣ ـ ٤٤.

(٢٣)ينظر: في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر: ٤٤.

(٢٤)ينظر: المناقب: ٦٤٢/٤، وأصول الكافي: ١٨٩/١.

(٢٥)ينظر: الإلهيّات: ٣٧/٤، ١١٦ ـ ١١٧.

(٢٦) بل ((لم تكن منزلته عند أبيه منزلة غيره من وُلده في الإكرام، وكان متهمًا بالخلاف على أبيه في الاعتقاد، فيقال: إنّه كان يخالط الحشوية ويميل إلى مذاهب المرجئة... وكان أفطح الرجلين)) منتهى الآمال: ٢٠٩/٢.

(٢٧) المقاييس في اللغة: ٤٧٦.

(٢٨) وقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام: ((الإمامُ المطهَّر من الذنوب، والمنزَّه من العيوب))أصول الكافي: ١١٩/١.

(٢٩)ينظر: التَّداوُليَّة عند العلماء العرب: ٣٢.

(٣٠)تحف العقول: ٢٩٢، وأصول الكافي: ٧٣/٢.

(٣١)أصول الكافي: ٢٠٩/١، وهناك أمور أراها في الرواية وهي أنّ الآية جاءت في آخر سورة الملك والامام المهدي جاء في آخر سلسلة العترة الطاهرة، ورقم الاية ثلاثون وهو نهاية الشهر والامام المهدي هو الثاني عشر وهو نهاية الاشهر في السنة، فالعامل المشترك بين الامام المهدي والاية هو التأكيد على الآخرية فضلا عن المذكور بالرواية من ان ضرورة الامام للحياة كضرورة الحياة.

(٣٢) تحف العقول: ٢٩١.

(٣٣) تحف العقول: ٢٩١.

(٣٤) ينظر: في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر: ٤٨.

(٣٥) تحف العقول: ٢٩٦.

(٣٦) تحف العقول: ٢٩٣.

(٣٧) ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٢٨.

(٣٨) ينظر: دلائل الإمامة: ١٦٧، ومثل هذه الرواية في ضرورة وحدة اللغة بين المُتكلّم والمُتلقّي ما رواه أبو بصير أنه كان عند الإمام الكاظم، فقال ((فما لبث أنْ دخل علينا رجل من أهل خراسان، فتكلّم الخراسانيّ بالعربيّة، فأجابه هو بالفارسية، فقال له الخراساني: أصلحك الله ما منعني أنْ أكلمك بكلامي إلا أنّي ظننت أنك لا تُحْسِن، فقال: سبحان الله ! إذا كنت لا أُحْسِن أنْ أجيبَك، فما فضلي عليك؟!)) الإرشاد: ٤٣٠، وأعلام الهداية:٧٨/٩.

(٣٩) وأمّا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤)، فهذا لا ينفي أنّه يعلم لغة غيرهم بل كونه للعالمين فهذا يستوجب علمه بلغة العالمين، ويلحظ أنّ الآية توضح ما عنيناه، وهو وحدة اللغة بين المُتكلّم والمُتَلقّي.

(٤٠)ينظر: الفعل اللغويّ بين الفلسفة والنحو، يحيى معيطش بحث ضمن كتاب التداوليات ــ علم استعمال اللغة ــ: ٩٢.

(٤١) بين تداوليّات سورل وتفكيكية دريدا، للباحث عبدالله بريمي (بحث) ضمن كتاب التداوليات ــ علم استعمال اللغة ــ: ٢٦١.

(٤٢) بين تداوليّات سورل وتفكيكية دريدا: ٢٦١.

(٤٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - بيان إعجاز القرآن -: ٢٨.

(٤٤) أصول الكافي: ٥٦/٥.

(٤٥) التَّداوُليَّة عند علماء العرب: ٢٠٦.

(٤٦) أصول الكافي: ١٧٩/١.

(٤٧)ينظر: تحف العقول: ٢٨٤ ــ ٣٠٤.

(٤٨)التّداوُليَّة اليوم: ٥٨.

(٤٩)في الجهاز المفاهيمي للدرس التّداولي المعاصر: ٥١.

(٥٠)تحف العقول: ٣٠٠.

(٥١)تحف العقول: ٢٩٢.

(٥٢)اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي: ٢١ ــ ٢٢.

(٥٣) تحف العقول: ٢٩٥.

(٥٤) مكارم الأخلاق: ٤٩٢.

(٥٥) يسمى بتقدير اعتراضات المتلقي، وأسميناه في الأعلى اعتراضات السامع، لأن السامع أعم، ولا يشترط في المحاجَج أن يكون خصمًا دائمًا.

(٥٦) الأسس الابستمولوجية والتّداوُليَّة للنظر النحوي عند سيبويه:٨٢ ـ ٨٣.

(٥٧) ينظر: الأسس الابستمولوجية والتّداوُليَّة للنظر النحوي عند سيبويه: ٩٩ ـ ١٠١.

(٥٨) المناقب: ٣٦٢/٤

(٥٩) سيرة الأئمة: ٣٨٠.

(٦٠) المناقب: ٦٣٦/٤.

(٦١) المناقب: ٤/ ٦٣٦.

(٦٢) المناقب: ٦٣٨/٤.

(٦٣) يسمى عند التداوليين بتقدير اعتراضات الخصم، وأبدل الخصم بالمتلقي مثلما ذكرنا في هامش سابق لأن المتلقي أعم من الخصم.

(٦٤) نهج البلاغة: ٣٥٤، وتنشّبَت العروق: عَلِقت وثبتت، والمراد من العروق الأفكار العالية والعلوم السامية، وتهدّلت: أي تدلت علينا فأظلتنا.

(٦٥)الإرشاد : ٤٣٦ ـ ٤٣٧، وينظر: مقاتل الطّالبيين: ٣١٢ ـ ٣١٣.

(٦٦) منهاج الكرامة: ٧٠.

(٦٧) ويمكن أن نقرأه في الراوية أعلاه قراءة أخرى بأن نقول نظرية ملاءمة وأفعال كلام... وما ذاك إلا لعظمة الموروث الكاظميّ وغناه المعرفي الذي جعل منه لوحة تزج بالفنون والأساليب.

(٦٨) التلقي القرآني في الدراسات القرآنية الأسلوبية الحديثة (بحث) منشور ضمن كتاب دراسات وبحوث مؤتمر الشيخ البلاغي الثالث: ٢١٢.

(٦٩) الإرشاد: ٤٢٩.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: الكتب

- اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي، شيخ الطائفة أبوجعفر محمد بن الحسن الطوسيّ (ت٤٦٠هـ)، تح: جواد الفيومي الخراساني، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ط١، ١٤٢٧هـ.
- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الإمام محمد بن محمد بن النعمان البغدادي الملقب بالمفيد (٤١٣هـ)، مكتبة الصفا، قم المقدسة ـ إيران، ط١، ١٤٢٨ هـ
- الأساليب التربوية عند أئمة أهل البيت عليهم السلام، السيد أبو هشام عبد الملك الموسوي، دار الزهراء، قم ـ إيران، ط١، ١٣٢٧ هـ.
- الاستلزام الحواري في التداول اللسانيّ، العياشي أدراوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ١٤٣٢ ـ ٢٠١١م.
- استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغويّة تداوليّة)، عبد الهادي بن ظافر الشهريّ، دار الكتب الوطنية، بنغاري ـ ليبيا، ط١، ٢٠٠٤م.
- الأسس الابستمولوجية والتّداوُليَّة للنّظرِ النّحوي عندَ سيبويهِ، د. إدريس مَقْبول، عالَم الكُتُب الحديث، إربد ـ الأردن، جدارا للكتاب العالميّ، عمان ـ الأردن، ط١، ٢٠٠٦ م.
- أصول الكافي، الشيخ محمد يعقوب الكليني (٣٢٩ هـ)، منشورات الفجر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧م.
- أعلام الهداية (الإمام موسى بن جعفر الكاظم)، المجمع العالمي لأهل البيت، قم إيران ط٢، ١٤٢٥هـ.
- الإلهيّات على هدى الكتاب والسنّة والعقل، الشيخ جعفر السبحانيّ، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، مطبعة اعتماد ـ قم، ط٥، ١٤٢٣هـ.
- بلاغة الخطاب وعلم النّصّ، د. صلاح فضل، الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان، القاهرة ، ط١، ١٩٩٦م.
- البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، محمد كريم الكواز، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ـ لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.
- تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التّداوُليَّة، د.عمر بلخير، منشورات الاختلاف، الجزائر، لا ط١، ٢٠٠٣م.

- تحف العقول عن آل الرسول، أبو محمد بن الحسن بن علي الحرّانيّ من أعلام القرن الرابع، المكتبة الحيدرية، ط١، ١٤٢٦هـ.
- التَّداوُليَّة عند العلماء العرب (دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللسانيّ)، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- التَّداوُليَّة اليوم (علم جديد في التواصل)، آن روبول وجاك موشلار، ترجمة د. سيف الدين دغفوس و د. محمد الشيبانيّ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ـ لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرماني (ت ٣٨٨هـ)، والخطابي (٣٨٦هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تح: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، (د.ت).
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، تح: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٤، ١٩٩٠هـ.
- دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (من علماء القرن الرابع الهجريّ)، منشورات مؤسسة الأعلميّ، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م.
- سيرة الأئمة (عرض تحليل للحياة السياسية والاجتماعية والعلمية للائمة المعصومين)، مهدي البيشوائي، تعريب حسين الواسطي، مؤسسة الإمام الصادق، ١٤٢٦ هـ.
- شظايا لسانية، د. مجيد الماشطة، مطبعة السلام، البصرة، ط١، ٢٠٠٧م.
- مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ)، تح: السيد احمد الصقر، مؤسسة النبراس، النجف الأشرف ـ العراق.
- المقاييس في اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا (ت ٣٩٥هـ)، تح: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، (د. ت).
- مناقب آل أبي طالب، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني، مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان، ط١٤٣٠،١هـ ـ ٢٠٠٩ م.
- اللسانيّات الوظيفية ـ مدخل نظري ـ، د. أحمد متوكل، دار الكتاب الجديد المتحدة ـ ليبيا، ط٢، ٢٠١٠م.
- مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، ١٩٧٦م.
- مكارم الأخلاق، الشيخ رضي الدين أبونصر الحسن بن فضل الطبرسيّ (من أعلام القرن السادس)، مكتبة الألفين، الكويت، (د.ت).
- منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، الشيخ عباس القمّيّ، تر: نادر التقيّ، مؤسسة المحبين، إيران ـ قم، ط١.

- منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، الحسن بن يوسف المعروف بالعلامة الحلي (٧٢٦ هـ) تح: الأستاذ عبد الرحيم مبارك، عروج (المكتبة المتخصصة بأمير المؤمنين)، قم المقدسة، ط١ (د. ت).
- نهج البَلاغة، تح: د. صُبحي الصّالِح، مركز البُحوث الإسلاميَّة، قم، ١٣٩٥ هـ.

ثانيا: البحوث المنشورة في الدوريات والمؤتمرات

- الاستلزام التخاطبيّ، أحمد متوكل بحث منشور في ضمن كتاب: التداوليات ـ علم استعمال اللغة ـ، تنسيق وتقديم: د. حافظ إسماعيل عليوي، عالم الكتب الحديث، أربد الأردن، ٢٠١١م.
- بين تداوليّات سيرل وتفكيكية دريدا، عبدالله بريمي، بحث منشور في ضمن كتاب: التداوليات ـ علم استعمال اللغة ـ، تنسيق وتقديم: د. حافظ إسماعيل عليوي، عالم الكتب الحديث، أربد الأردن، ٢٠١١م.
- التلقي القرآني في الدراسات القرآنية الأسلوبية الحديثة، د. عواطف كنوش، و د. ليث داود سلمان، جامعة البصرة، بحث منشور في: دراسات وبحوث مؤتمر الشيخ البلاغيّ الثالث، مؤسسة شهيد المحراب، دار الضياء، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.
- السياق غير اللغوي في النّصّ القرآني، م. د خليل خلف بشير، جامعة البصرة، بحث منشور في ضمن: دراسات وبحوث مؤتمر الشيخ البلاغيّ الثالث، مؤسسة شهيد المحراب، دار الضياء، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.
- الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو، يحيى بعيطش، بحث منشور في ضمن كتاب: التداوليّات ـ علم استعمال اللغة ـ، تنسيق وتقديم: د. حافظ إسماعيل عليوي، عالم الكتب الحديث، أربد الأردن، ٢٠١١م.
- في الجهاز المفاهيمي للدرس التداوليّ المعاصر د. مسعود صحراويّ، بحث منشور في ضمن كتاب: التداوليات ـ علم استعمال اللغة ـ، تنسيق وتقديم: د. حافظ إسماعيل عليوي، عالم الكتب الحديث، أربد الأردن، ٢٠١١م.